﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٣٦﴾ [مريم: 36]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

هذا آخر ما نَطق به عيسى ﷺ، وما قَبْله اعتراض بين كلامه، وقد جيء بهذه الآية بعد هذا الاعتراض؛ لتقرير أنّ عيسى ليس ولدًا لله حتّى يتّخذه، وإنّما هو مخلوق لله كقومه، واللّهُ خالقه وخالقهم، وهو ربّهم جميعًا، ويُؤيّد هذا الفهم ويُؤنِس به قَصْدُ عيسى ﷺ إلى إثبات التّسوية بينَه وبين قومه في المَخلوقيّة والمَربوبيّة لله الرّبّ ﷻ؛ بأن قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾، ولم يقل: (وإن الله ربُّنا)؛ مع أنّه أوجز وأخصر.

النّاس كلّهم عبيد الله مهما اختلفت مقاماتهم وعلت رتبهم

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صِرَٰطٞ﴾: أصلُ (صرط): الطَّريقُ الواضحُ المُسْتَقيمُ، وسُمّي صِراطًا؛ لأنَّ النّاسَ يَسلُكونَهُ بسُرعَةٍ لكونِه واسِعًا مُستقيمًا، والجَمعُ: صُرُطٌ، أو مِنْ سَرِطتُ الشَّيْءَ: إذا ابْتَلَعْتَهُ؛ لأنَّهُ - أي: الطَّريق - يَبْتَلِعُ المارَّةَ لكَثْرَةِ سُلوكِهِم[1]، والمقصود بالصِّراط في الآية: الطَّريقُ البَيِّنُ القَويم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قال عيسى لقَومِه وهو في مَهدِه: وإنَّ اللّهَ رَبّي ورَبُّكم فاعبُدوه وحدَه لا شريكَ له، هذا الذي جئتُكم به مِن عندِ الله هو طريقٌ قويمٌ، لا اعوِجاجَ فيه، فمَن سلَكَه اهتَدَى، ومَن خالفَه ضلَّ وغوَى[2].

مُدبِّرُ النّاسِ ومُصلِحُ أمورِهم هو اللهُ تعالى

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَإِنَّ﴾:

الواو في ﴿وَإِنَّ﴾ عاطفة، فقولُه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ معطوف

هذا بَقيَّةٌ لكَلامِ جَرى على لسانِ عيسى تَأْييدًا لبَراءَةِ أُمِّهِ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (سرط، صرط).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 541، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 108، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 493.

على قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، فيكونُ محكيًّا، وبَقيَّةً لكَلام جَرى عَلى لسان عيسى عليه السلام: تَأْييدًا لبَراءَة أُمِّه، وعليه يكون قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ اعتراضًا، أخبَرَ اللّهُ تعالى بها رسولَه عليه السلام[1].

تَنَوُّع قِراءات (إنَّ) و(أنَّ) وأثرُه على المعنى:

تعدّد القراءاتِ كنايةٌ عن أهميّة مقطعها القرآنيّ في سياقه

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ﴾، قَرَأ ابْنُ عامرٍ وأهْلُ الكوفَةِ ورَوْح بكَسْرِ الهمزة بتقدير: (قُلْ)، أو على الاستئناف، وقيل: على الأوّل أنَّها عَطْف على الصَّلاة، أي: أوصاني بالصَّلاة، وبـ(إنَّ الله ربي وربكم فاعبدوه)، وقَرَأ نافِعٌ وابْنُ كَثيرٍ وأبو عَمرٍو وأبو جَعْفَرٍ ورُوَيْسٌ عَنْ يَعْقوبَ بفتح الهمزة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾[2]، بتقدير: اذكر، أو لأنَّ، والمعنى: ولِأنَّ الله رَبّي ورَبُّكم فاعبدوه[3]، "فَهو تَعْليلٌ لقَوْلِه: ﴿فَٱعْبُدُوهُ ۚ﴾ عَلى أنَّهُ مُقَدَّمٌ مِن تَأْخيرٍ؛ لِلاهْتِمام بالعِلَّة لكَوْنِها مُقَرِّرَةً لِلْمَعْلولِ، ومُثْبِتَةً لَهُ عَلى أُسْلوبِ قَوْلِه تَعالى ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: 18]، ويَكونُ قَوْلُهُ: ﴿فَٱعْبُدُوهُ ۚ﴾ مُتَفَرِّعًا عَلى قَوْلِه ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، بَعْدَ أنْ أرْدَفَ ما تَعَلَّقَهُ مِن أحْوالِ نَفْسِه"[4].

دلالة التّوكيد بمُؤكِّدين (إنَّ واسميّة الجملة):

تَعْميمُ رُبوبيَّةِ الله تَعالى لكُلِّ الخَلْقِ

أُكِّدت الجملة في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ﴾ بمُؤكِّدَين: (إنَّ، والاسميّة)؛ لأنَّ الحوار مع مُجادِلين مُمترين، ولعلَّ الله تعالى أعْلَمَه باختلاف أهل ملَّته فيه ومغالاتهم، فأكَّدَ لَهُم تأكيدًا بعد تأكيد على عبوديَّته لله تعالى، والمَعْنى: تَعْميم رُبوبيَّة الله تَعالى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 179.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 318.
(3) القنوجيّ، فَتْح البيان: 8/ 265.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 104.

لكُلِّ الخَلْق، ويؤيّدُ هذا قَصْدُه التّسوية بينَه وبينَهم في المَربوبيّة، بأن قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾، دون أن يقول: (وإنّ اللّهَ ربُّنا).

بلاغة تنوّعِ التّعبير عنِ الذّات العَليّة، باسم الجلالة أوّلًا، والرّبّ ثانيًا:

الإقـرارُ بتَوحيدِ الـرُّبـوبـيَّـةِ، وتوحيدِ الإلَهيَّةِ

المقصودُ إثباتُ الألوهيّة للّه سبحانه عقِبَ الاعتراض السّابق، الذي قرَّر أنّ اللّه ليس مِن شأنه أن يتّخذ ولدًا، فسلك في سبيل تحقيق ذلك مسلكَ التّسوية بينَه وبين قومه في المَربوبيّة؛ لأنّ الرّبّ هو الموجِد مِن عدم، وهو المُربّي، وهو المُراقب، وهو المُنعِم، وهو المُحْسِن، وأحوالُه وأحوالُهم الظّاهرةُ تدلُّ على ذلك، فاتَّخَذَها دليلًا على الألوهيّة الدّالِّ عليها اسمُ الجلالة: ﴿ٱللَّهَ﴾؛ فآثارُه ظاهرةٌ في أحوالهم جميعًا، والتي يدلُّ عليها قوله: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾.

دلالةُ العطفِ، وإضافةِ الرَّبّ لضمير المخاطَبين:

مُـدبِّـرُ الـنّـاسِ، ومُصلِحُ أمورِهم هو الله تعالى

دَلَّ العطف بالواو في: ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ على شمول إحسان اللّه تعالى ولُطْفِه، ورعايته، وتَرْبيته لعباده سبحانه، حيثُ لم يقتصر على عيسى فحَسْب، وقد أراد حَثَّ قومِه وترغيبَهم في توحيد اللّه تعالى، وأَمَرَهم بهذا صراحةً، والمعنى: أحْسَنَ إلى كُلٍّ مِنّا بالخَلْق والرِّزْق، لا فرْقَ بَيْنَنا في أصْلِ ذَلِكَ[1].

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَٱعْبُدُوهُۚ﴾:

الأُلـوهيَّةُ تُـلازِم الرُّبوبيَّة

الفاء في ﴿فَٱعْبُدُوهُۚ﴾ فاءُ الفصيحة، وفعل الأمر (اعبُدوهُ) في محلّ جزمٍ جوابُ شرطٍ مُقدّر، أي: إن كنتم مُقرّين بربوبيّته فاعبدوه، فبَعْدَ أن قَرَّرَ الرُّبوبيّة أَمَرَ بالعُبوديَّة له ﷻ وحْدَه؛ لأنَّ الأُلوهيَّة تُلازم الرُّبوبيَّة[2].

معنى الأمرِ ودلالتُه:

الأمر في قَوْله: ﴿فَٱعْبُدُوهُۚ﴾ للوجوب والإلزام، فهو على معناه

(1) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 12/ 197.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4639.

الحقيقيّ؛ إذ إنَّ تَرْتيبَ الحُكْمِ عَلى الوَصْفِ المُناسِب مُشْعِر بالعِلّيَّة، والأمرُ بالعِبادَة وقَعَ مُرَتَّبًا عَلى ذِكْر وصْفِ الرُّبوبيَّة، فدَلَّ على أنَّه إنَّما تَلْزَمُنا عِبادَتُه سُبْحانه لكَوْنه رَبًّا لَنا، وذلك يَدُلُّ عَلى أنَّه تَعالى إنَّما تَجِبُ عِبادَتُه لكَوْنه مُنْعِمًا عَلى الخَلائق بأُصول النِّعَم وفُروعِها.

تَرْتيبُ الحُكْمِ عَلى الوَصْفِ المُناسِبِ مُشْعِرٌ بالعِلّيّة

الغرض مِنَ التَّعبير بالمُسْنَد إليه اسمَ إشارةٍ للقريب ﴿هَٰذَا﴾:

المقصود باسم الإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ القَوْلُ بالتَّوْحيدِ، ونَفْيُ الوَلَدِ والصّاحِبَةِ، وهو الطَّريقُ المُسْتَقيمُ الَّذي يُفْضي بقائِلِه ومُعْتَقِدِه إلى النَّجاة، والتَّقدير: (هذا الذي جئْتُكم به مِن عندِ اللّهِ، وذَكَرْتُه مِنَ التَّوْحيد هو طريقٌ قويمٌ، لا اعوجاجَ فيه، فمَن سلَكَه اهتَدَى، ومَن خالفَه ضلَّ وغوَى)[1]، وعُبِّر باسم الإشارة للقريب؛ للدّلالة على قُرْب طريق اللّه، ويُسْره، ووضوحه، والوصول بصاحبه إلى طريق النَّجاة دون تَشَعُّب ولا حيرة، ولا اضّطراب، وأنَّ في الإمكان تحصيلَه وفهمَه واعتقادَه.

يُسْرُ طريقِ الله، ووضوحُه، وسهولتُه

الغرض مِن تنكير المُسْنَد ﴿صِرَٰطٌ﴾:

الغرض مِن تنكير المُسْنَد: ﴿صِرَٰطٌ﴾ التَّفخيمُ؛ إذ لا صِراطَ أفخمُ، ولا أفضلُ، ولا أَنْجى، مِن صِراطٍ يُؤَدّي بصاحبه إلى الفوز بالدّارين.

لا صِراطَ أنْجى مِن صراط الله

بلاغةُ التَّشبيه في قوله: ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾:

في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، شُبِّهَ الاعتقادُ الحَقُّ بالصِّراط المستقيم؛ لأنَّ كُلًّا منهما يوَصِّل إلى المقصود في سلام واطمئنان، والتَّشبيهُ هنا بليغ؛ لحذف أداةِ التَّشبيه ووجه الشَّبَه، وأوثرَ التَّعبيرُ بالتَّشبيه البليغ؛ لأنَّه أعلى درجات التَّشبيه؛ إذ فيه ما يُشْعِر باتّحاد جِنْسِ المُشَبَّه والمُشَبَّه به، وادِّعاءِ أنَّ المشبَّهَ عينُ المُشبَّه به، لذا يتَّصف بقوَّة المبالغة، ووُصِفَ الصِّراطُ بـ﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾؛ لأنَّه يوصل صاحبَه إلى بَرِّ النَّجاة.

الصِّراطُ المُستقيم يوَصِّل صاحبَه إلى بَرِّ النَّجاة

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 9/ 245.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصّراط والسّبيل:

الصِّراط يتميّز بالاستقامة والبُعْد عنِ الزَّيْغ والضَّلال، والسَّبيل يتميّز بالوضوح والسّهولة

صراط: أصلُ (صَرَطَ): الطَّريقُ الواضِحُ المُسْتَقيمُ، ويَدُلُّ على غَيْبَة في مَرٍّ وذَهابٍ[1]، والصِّراط في اللّغة: السَّبيل الواضح، والصِّراط لغةٌ في السِّراط، وسُمّي صِراطًا؛ لأنَّ النّاسَ يَسلُكونَه بسُرعَةٍ؛ لكونِه واسِعًا مُستقيمًا؛ وكأنَّه يَسْتَرِط (يبتلع) المارّةَ لكثرة سلوكهم لاجِبَه[2]، ومِمّا يُلْحظ مجيء الصِّراط في أكثر مواضعه في القرآن الكريم موصوفًا بالمستقيم، ومن شواهد ذِكْر الصِّراط في القرآن الكريم قولُه تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: 6 - 7].

سبيل: وردت كلمة (سبيل) في القرآن الكريم، وفي أكثر المواضع جاءت مضافة إلى لفظ الجلالة، ولعلّ ما رَشَّحها لهذا هو ملمَح السّهولة للتَّعبير عن وضوح المَسلك إلى الله تعالى وسهولتِه على السّالكين، وإن حَفَّت به المكارُه والمصاعبُ، كما استُعير السَّبيلُ للتَّعبير عنِ المَذْهب والطَّريقة، نحو قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٠٨﴾ [يوسف: 108].

وتشترك الكلمتان (الصّراط، السّبيل) في الدّلالة على المَسْلك، لكن يتميّز كلٌّ منهما بملامح فارقة؛ فالسَّبيل يتميّز بالوضوح والسّهولة، كما يتميّز بإضافته إلى كلمة (ابن)، والصِّراط يتميّز بالاستقامة والبُعْد عنِ الزَّيْغ والضَّلال[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سرط).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سرط).
(3) محمد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 281.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 31 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-73-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 31 : المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-73-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»